البلجاء

للآنسة سهير القلماوى

لبنانيه فى الآداب

ظلت العراق شوكة فى حلق الدولة الاموية الى ان جهز منه ما قوض اركانها وهدم سلطانها . وظلت العراق موطنا لكل خارج على الدولة الاموية تأوى كل من يرى فسادا فيما آلت اليه الحال وكل من يحس سخطا على القائمين بالامور . آوت العراق اهم فرقتين كانتا ساخطتين على خلفاء بنى امية وسياستهم وهم الشيعة والخوارج .

كان هم كل وال جديد على العراق أو احد مصريه الكوفة والبصرة ان يحارب هاتين الفرقتين حربا تختلف قوة وضعفا باختلاف شدة معارضتهما ايام ولايته وباختلاف طبيعته الشخصية وما تحتمل تلك الطبيعة من منظر سفك الدماء وازهاق الارواح .

ما كاد العراق يتنفس فى شىء يسير من الراحة بعد موت زياد حتى ابتلاه معاوية بمن هو الى الشراسبق ولو فى تهور ، والى سفك الدماء اسرع ولو فى ظلم وعدوان — ابتلاه بعبيد الله بن زياد

اما الشيعة فكانت تصطنع الاستكانة شيئا ما ، وما زال عهدها بزياد قريبا ومازال مقتل حجر بن عدى وصحبه يتمثل لها فترتجف لهوله القلوب ويثور من اجله فى النفوس شىء من السخط . ولكنه سخط مستسلم أو قل هو سخط يستعد ويدبر للثورة والانتقام .

واما الخوارج فمازالت دعوتهم قوية لاتعرف تستراح لارفقا كانت شعلة تحرق مايقف فى طريقها كانت نارا مقدسة من الايمان الجارف القوى تلهب القلوب وتلهب الضحايا البريئة الطاهرة التى كانت تقدم فى كثير من التنكيل والاسراف قربانا على مذبحه .

اصبحت البصرة منذ مقدم ابن زياد مرجلا يغلى بما فيه من خوف وقلق واضطراب ، كل يتستر بعقيدته يجتمع وصحبه ولكن فى حذر كل الحذر . كل يبث دعوته ولكن فى حيطة دونها كل حيطة . عرف اهل البصرة فى واليهم الجديد نوعا من البطش قلل فى نظرهم شيئ من بطش زياد على قرب عهدهم به . هذا البطش الجديد لم يكن يقف عند حد ، لم يكن يعرف شيئا من الاناة فى تنفيذ اشد العقوبات وانكاها ، لم يكن يعرف هوادة ولا تريثا وانما كان قوة تكتسح امامها كل شىء ، لاتعرف الا انها قوة والا انها يجب ان تندفع .

نال الخوارج من هذا البطش ومن هذا النكال النصيب الاوفر فقد قتل منهم عدد غير قليل ولم يكن قتلا عاديا وانما كان قتلا يقصد به الردع والارهاب كأشد مايمكن ان يكون الردع والارهاب كان صلبا ، كان تقطيعا للايدى والارجل فى الساحات العامة ، كان قتلا لا ككل القتل ، كان القتل صبرا ولم تكن الضحايا فرادى وانما كانت جماعات .

عرف الخوارج منذ اول ظهورهم بشجاعة نسائهم وجهادهن معهم . ويذكر الخوارج فى تاريخهم عددا غير قليل ممن استشهدن وحاربن بل ممن قاتلن وتبارزن فى سبيل نصرة المذهب الجديد . ولقد غاظ زياد امرهؤلاء النسوة ، ماذا يفعل بهن لقد نهى الرسول عن قتل نساء المشركين اثناء حروبه معهم فكيف بنساء المسلمين . ولكن أمر هؤلاء النسوة لم يكن يسيرا . لقد كن ينشرن الدعوة فتسير كالنار فى الهشيم لابد لهن من عقاب رادع ، لابد لهن من شىء فوق طاقتهن حتى يعدن الى ماخلقن له حتى يدعن الجهاد لمن هم به اولى وعليه اقدر . وتذكر فعل الوالى قبله . لقد قتل زياد خارجية وعراها فى الميدان العام فلم تظهر خارجية بعدها إمرها ايام زياد . لقد خفن العار وانلم يخفن الموت . احسبن انه لن يقدر على هذا ،

وبحيوانها ، ودارت الافلاك بالسنوات والاحقاب . والانسان دائب فى مزج احياء المشرق باحياء المغرب غير متعمد ذلك ولا قاصد اليه ، حتى ضاعت المواطن الأولى لتلك النباتات واحت قوميتها ، وتأقلمت فاستترت سيماء الاجنبية منها ، واستعربت فاختفت مظنة العجمة فيها ، أو استعجمت فذهبت العروبة عنها ، فالمصرى يزرع الذرة والبطاطس (شكل ٣) ويحسب أنها مصرية وهى امريكية ، والامريكى يزرع الأرز والموز وجوز الهند ويحسب أنها امريكية وهى أسيوية . وما جرى بين أمريكا والدنيا القديمة جرى لاشك بين ثلاث القارات فيما بينها وبين أصقاع القارة الواحدة

اختلطت نباتات الارض فاستبهمت أصولها ، وانتشرت حيواناتهـــا فى البلاد فأصبحت كل ارض بلدها ، فهل يكون للانسان ، وهو جنس واحد من الحيوان ، مثل هذا المآل ؟

احمد زكى

كلا فوالله لو ظفر باحداهن ليجعلنها عبرة لمن بعدها .

وبسط هذه القلاقل كان ابو بلال مرداس زعيم الخوارج اذ ذاك يجتمع بصحبه كل مساء يتدارسون مذهبهم ودينهم ويتدبرون حالتهم وما يستطيعون امام هذا السلطان العاتي . يفكرون في امور الدولة واعمال الوالي الجديد ويدبرون خططا جديدة لبث الدعوة وتيسير السلطان لمذهبهم .

كان بين هؤلاء الصحب امرأة تعرف بالبلجاء فاذا ما جلس ابو بلال جلست الى جواره تستمع الى حديثه في شغف وتلتقط الكلام من فم هذا الذي كادت تؤلهه الجماعة كانما كلامه قطرات ماء وكانما اذنها قد اعياها طول العطش . وكانت ابو بلال سمح الطبع قوى الايمان فاستراح لقرب تلك السامعة ، وحفظ لها في قلبه مكانة عظيمة . لقد اعجبه منها ايمانها وتعلقها بالمذهب ، تسأل عما اشكل عليها فيه فلا تمل سؤالا . ولم يكن هو ليدخر جهدا حتى يوفق في اجابتها الى الجواب المقنع الشافي .

ظلت البلجاء هكذا زمنا الى ان آمنت بالمذهب الجديد ايمانا لا يرتضي سكوتها وهدوءها . فبدأ الايمان يملي عليها العمل والتضحية في سبيله شأن كل ايمان يتم تضوجه ويعم القلب نوره . قامت البلجاء بدورها تبث الدعوة بين اهل البصرة فلبى دعوتها الكثير . ولكنها مازالت تختلف الى مجلس ابي بلال بعض الليالي تأنس بالشيخ وبصحبه فينمو ايمانها في هذا الجو المشبع ايمانا ويقوى جلدها على احتمال اتعاب النهار واخطاره

جلس أبو بلال ذات ليلة وانضم حوله الصحاب متشوقين الى سماعه ، فاعرفوا ان لديه الا الصواب ، متلهفين الى حجمه وآيات ايمانه ، فقد كانت لقلوبهم وعقولهم خير غذاء في هذا الجو المكفهر المضطرب . ولكنه ما كاد يلتئم جمعه ويبدأ حديثه حتى قام اليه احدهم وهو غيلان بن خرشة الضبي وقال : « يا ابا بلال اني سمعت الامير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء واحسبها ستؤخذ » .

وجم المجلس وفكر الشيخ طويلا . فالبلجاء كانت من خير أعوانه ، وكان الذين دخلوا على يديها في المذهب الجديد غير قليلين . فلا بد اذن ان ابن زياد عرف هذا ولا بد انه بعد ان عرف قدر وفكر ، ولا بد انه من بعد ان قدر قرر ، وما عظم ما قرر ! وتنازعت نفسه عوامل عدة ولكن أقواها كان الخوف على البلجاء ، خوف العار لا خوف القتل .

ولم يستمع القوم لابي بلال هذا المساء فقد كان فكره مشغولا وعقله مضطربا . ينتظر البلجاء فلا تأتي ، يطول الانتظار . وما كاد المجلس يخلو حتى عدا اليها مسرعا . وفي الطريق قدر رغم اسراعه وفكر . ماذا يقول لها ؟ ثم يصحها ؟ لقد كان يذكي ايمانها كل يوم فيسره هذا الاذكاء ، ايطفيء اليوم هذا النور الذي بيده أو يداريه فيحجب شعاعه ؟ ولكن بطش زياد عظيم وانه لجبار عنيد .

وصل الى بيت البلجاء فوجدها قد آوت الى فراشها من تعب النهار ولكنها ما كادت تسمع صوت ابي بلال في الفناء حتى قامت اليه مسرعة وقلبها يكاد يحطم صدرها من اضطرابه . ما سر هذه الزيارة المتأخرة ؟ وماذا عند ابي بلال وقد آوى الناس الى فراشهم الا القليل ؟ ولكن ابا بلال لم يطل عليها الاضطراب فقد قرر رأيه ولم يعد لديه الا قولا واحدا يقوله لها

— ان الله قد وسع على المؤمنين بالتقية فاستتري فان هذا المسرف على نفسه ، الجبار العنيد قد ذكرك .

وكان موقف البلجاء جليا لها واضحا فلم يكن ذكرا بن زياد لها امرا مستبعدا ولم يكن خوف ابي بلال عليها شيئا غير منتظر ولكن الام يدعوها أبلى اليقين وهن عرف التقية ذوو الايمان القوي ؟ . ورنت في اذنها الآية (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) اي رحمة ، اي شفقة : اي تقدير للانسان اي فهم لضعفه ولدواعي ولكن الايمان النار القوية الملتهبة ما هذه الحشرات التي تدنو منها أخوف ؟ أخوف الموت ؟ اعار التعرية ؟ والنار القوية تحرق كل حشرة تدنو منها فتزداد بهذا الاحراق قوة ولهبا . وهؤلاء الذين دعتهم قلبوا أيشهدون خبو هذه النار التي مسهم شررها فآنسوا اليه ؟ كلا كلا وايم الله!

— ان يأخذني فهو أشقى لي اما انا فما احب ان يعنت انسان بسببي .

السوق هائجة مائجة والناس تروح فيها وتغدو وعلى وجوههم غبرة قاتمة حاسرة . كل وجه عليه مزيج من علائم الحزن والاضطراب والاشمئزاز والسخط ماذا في السوق ما الذي يثير كل هذه العوامل في نفوس الناس فتغير من ملامحهم تغييرا أليما منكرا :

جاء ابو بلال الى السوق والفى القوم على تلك الحال ولكنه لم يتساءل فقد وجد ابصارهم عالقة بشيء منصوب عن بعد فما لبث ان رفع هو بصره اليه ، ماذا ؟ أجسد امرأة قطعت يداها ورجلاها؟ ومن تكون تلك التي أثارت حفيظة الامير فنكل بها هذا التنكيل البشع؟ الجواب يضطرب في صدره ولكنه لا يقوى على تصديقه والمرء أزاء المصائب اعزل لاسلاح له الا مرارة انكار الواقع